الاتجاه الأدبي عند الشيخ محمّد عبده

د. طارق أحمد آهنغر *

قيل إنّ أحلك ساعات الظلام هي ساعة أخيرة من الليل قبل مطلع الفجر الصادق بلحظات. ويصدق ذلك على أوقات الظلام في عصور التاريخ، فإن أظلم أوقاته لهو الوقت الذي يسبق فجر اليقظة بقليل من السنوات، ثم تأتي اليقظة في حينها فاذا هي بصيص النور الأول قبل تباشير الصباح، وعلى هذه الوتيرة كان القرن الثامن عشر في البلاد العربية أحلك ساعات ليله الطويل، ليل الجهالة واليأس والجمود لا للثقافة العربية فحسب بل أيضا للّغتها وأدبها.

وكانت اللّغة العربية في بداية القرن التاسع عشر في الجمود والرقود، والشعر فيها تدور حول موضوعات المدح والهجا والوداد الزائف المتكلّف، لا يليق العصر ومتطلباته، والنثر يدور حول المسائل الفقهية البالية لا صلتها بالحياة الحديثة المتغيّرة، ولم يكن لها المقاصد الاجتماعية والإصلاحية كما لا علاقتها إلى العالم العلمي المتطوّر. وكان أسلوب اللّغة العربية السائد في ذاك العصر معقّدا ومتصنّعا ومتكلّفا ومقيّدا بتعقيد لفظي ، فانهدمت بها اللّغة وانكسر ظهرها، لا حركة لها ولا حرارة فيها، ولا تستطيع أن تمشي بالزمن ولا تليق العصر الذي عاشت فيه، و تنتظر إلى من يخرجها من تلك الورطة ويفتح لها الأبواب والنوافذ لتتنفس في الهواء الطلق، فقام الشيخ محمد عبده وفكّر في تحريرها وبذل جهوده الجبارة في إطلاقها من قيودها، وهو أول من وأطلقها من أغلالها اللفظية والمعنوية وأعطى لها وظيفة اجتماعية ومقاصد جليلة واستخدمها للإصلاح الاجتماعي والأدبي.

بداية الحياة الجديدة في مصر

كان خروج الحملة الفرنسية من مصر بدءا لحياة جديدة في السياسة والعلم

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

والاجتماع، فقد شعر المصريون بحقوقهم السياسية والاجتماعية، وقد اتّصل المصريون بالغرب وحضارتها لا في العلم فقط، بل في النواحي المادية والاجتماعية والعلمية والسياسية، ولكن هذا الاتصال ظل قاصرا في أول الأمر على النواحي العلمية والفنية والتطبيقية. وأما النواحي الأدبية فظلّ فيها الاتصال معدوما أو كالمعدوم، إذ لم تحدث بينهما علاقة أدبية حقيقية.[1] ولذا لم تتغير الأحول الأدبية في مصر حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر وما زال الأدب العربي يتخلّف ويسير على صورته الموروثة، فقد عاش فيه بعقلانية القديمة وذوقه القديم الذي كان مقيدا بالسجع والبديع. وقد نشأت عند الأدباء وطبقة من الكتّاب دواوينهم مثل عبد الله فكري التي لم تختلف في شيء عن روح كتاب الدواوين المتأخرين مثل القاضي الفاضل وطبقته، فهم يكتبون المنثورات والتقريرات بأسلوب السجع، ولا يكتفون تماما فيه من أغلال بل يضيفون أغلال الجناس والطباق وغيرهما من أغلال البديع. فلا نبالغ إذا قلنا إن النثر العربي ما زال غارقا في الجمود والاتجاه المتحطم.[2]

أسباب الجمود والتخلف الأدبي في مصر

وربما كان لهذا الجمود أسباب عديدة ولا أرى فيها إلا السببين المهمّين:

الأول: كانت مصر منذ السنوات البعيدة تحت سيطرة الأتراك، وكانت طبقة من الأتراك استولت على المناصب الكبرى لم يكن يسمح للمصريين بتولي هذه المناصب، بل لقد يحكمهم حكما مستبّدا، ليس فيه شورى ولا ما يشبه الشورى، فظل الشعب بعيدا، فأصبحوا فريسة العقدة النفسية فنشأ فيهم اليأس ولم يساهموا في رقى قومهم العربي ولم يعتنوا بلغتهم.

الثاني: وكانت اللّغة التركيّة لغة رسمية في مصر دون لغتها العربية، إذ لم تكن

---

[1] ضيف، د. شوقي: الأدب العربي المعاصر في مصر، ط: ١٠، دار المعارف، مصر، ١٩٩٢م، ص:١٦٩.

[2] نفس المرجع، ص:١٦٩

هناك بواعث سياسية ولا قومية تدفعها إلى التطوّر، وتخرجها من الظلمات إلى النور، فظلت لغتها معها متخلّفة دون النمو والتطوّر، ولقد كان الحاكم يدعّم عليها اللّغة التركية في دواوينه ومنشـوراته وما يطبع من كتب وآثار في مطبعة بولاق، بل كان التحدث باللغة العربية بين طلاب المدارس يعتبر سبّة حتى عهد عباس الأول.

ولذا كان منهج الأدب العربي غارقا في التقاليد المحطّمة في النصـف الأول من القرن التاسـع عشـر وغير قليل من النصـف الثاني، فلا توجد وسـائل التعبير النثري سوى هذه الوسيلة الضيقة، وسيلة السجع والبديع التي تخنّق الكلام، وتحول بينها وبين التعبير الحرّ، ولا يزال محصورا في الصناعة الراكدة الجامدة.[١]

بدأ إصلاح المنهج الأدبي

و أول خطوة الإصـلاح في رقي النثر العربي بدأها رفاعة الطهطاوي الذي تعلّم في الأزهر وتخرّج فيه ورافق البعثة الكبرى الأولى إماما لها، التي أرسـلها محمّد على إلى أوربّا[٢]، فأخذ إبان قيامه بباريس يصـف الحياة الفرنسـية من جميع النواحي الماديّة والاجتماعيّة والسـياسـيّة في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وعاد إلى مصـر فاشتغل بالترجمة وعيّن مديرا لمدرسة الألسن، وأخذ يترجم مع تلاميذه آثارا مختلفة من اللّغة الفرنسـة إلى العربية، ولكنه لم يسـتطع هو ولا تلاميذه على تحرير النثر من السجع والبديع،[٣] بل ظلوا يكتبون بهما المعاني الأدبية الأوربية، ومن الغريب أنهم كانوا يقرؤونها في لغة سهلة، ثم ينقلونها إلى هذه اللّغة الصعبة العسيرة المملوءة بضروب التكلّف الشديد، فيصبح شيئا مبهما لا يكاد يفهم إلا بمشقة.[٤]

---

[١] السيد ، تقي الدين السيد، محمّد عبده أديبا وناقدا، نهضة مصر، الفجالة القاهرة، ص:١٦٥-١٦٦

[٢] زيدان، جورجي: تاريخ آداب اللّغة العربية، عدد الأجزاء: ٤، مؤسسة دار الهلال، مصر.ص:٢٢-٢٣

[٣] محمّد عبده أديبا وناقدا، ص:١٦٦

[٤] نفس المرجع، ص: ١٧١

وتجلّت الخطوة الثانية في رقى النثر العربي في كتابات عبد الله فكري فقد كان خليفة رفاعة الطهطاوي حقا لا من حيث الترجمة فقد كان لا يعرف إلا العربية والتركية، ولكن من ناحية أنه كان مركز الحركة الفكرية في عصره اتّصل بالتعليم حتى كان ناظر المعارف المصرية وكان أسلوبه بين القديم والحديث وهو إلى قديم أقرب في أسلوبه والى الحديث أقرب في موضوعاته. ومات عبد الله فكري سنة ١٨٨٩ م بعد أن أثّر في النهضة الحديثة أثرا بالغا.

و خطوة الثالثة التي خطاها في النثر العربي الشيخ محمّد عبده، وقد رأى أن الاتجاه الحالي لا يليق بالأوضاع السياسية والاجتماعية ولا يلائم العصر والحياة التي تعيش مصر فيها كما لا يقتضي متطلبات البحوث العلمية والأدبية والصحفية، فأحسّ ضرورة اتجاه جديد ومذهب حديث للنثر العربي يذهب إليها طبقة الكتّاب الحديثة ويتبعها الأدباء الناشئين، كما صرح السيّد تقي الدين السيّد قائلا: "و قد ظهر هذا المذهب بعد الفترة الحالكة التي أشرنا إليها سابقا، ظهر في مصر على يد الإمام محمّد عبده في أواخر القرن الماضي فرّد اللّغة إلى سهولتها الأول بما كتبه وألفه فدبت الحياة في الكتابة يتعمّد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء"[١]. فأحذ النثر بعد ذلك يتحرّر من القيود الثقيلة التي كان يتقيد بها، وتحرّر من السجع فانطلق وتدفّق فيما بعد، كما تحرّر من المحسنات البديعية الأخرى ومن تكرار الجمل المملة في المعنى الواحد، وتخلّص بالتدريج من المقدمات الطويلة التي كان يتكلّفها الكتّاب أمام الموضوع، واتجه الكتّاب تدريجيا إلى تقويم المعاني في المرتبة الثانية والألفاظ في المرتبة الأولى".[٢] فأصبح هذا المذهب الجديد حركة في مصر، وكان الأستاذ الشيخ محمّد عبده من وراء هذه الحركة يدفعها بكلتا يديه في الصحافة وفي التدريس وفي الكتابة والتأليف في شتى الميادين، هو رائد وهو الموجه للنهضة الأدبية الحديثة لا

[١] محمّد عبده أديبا وناقدا، ص: ١٦٣

[٢] نفس المرجع، ص: ١٦٣-١٦٤

لمصر بل لسائر المناطق العربية، ولما كانت هذه النهضة ذات شكل ومضمون فعلينا أن نعرف المنهج الذي سار عليه الشيخ لوضع أسس النهضة الأدبية الحديثة، وما كان منهجه وكيف تطوّر هذا المنهج؟

منهج الشيخ محمّد عبده الأدبي وأسلوبه

ولا شك في أن المنهج الذي وضعه الشيخ محمد عبده وأحث أدباء عصره على اتباعه لم يكن حديثا بكل حداثة، ولم يكن الشيخ محمّد عبده مبدعا بل مطيعا ومتجدّدا لهذا المنهج. يبدأ هذا المنهج في عصر العرب الزاهر، لما كانت اللّغة العربيّة لغة حضارة وعلم، كما كانت لغة دين وأدب، ومن المهم لم يكن هذا العصر عبّاسيا فحسب كما يزعم كثير من الباحثين والنقاد، بل كان هذا العصر عصر القرن الأول للهجرة وما قبله الذي نزّل الله فيه كتابه المبارك على ورسوله الكريم وأرسله بشيرا ونزيرا. وكان أسلوب القرآن ومنهجه في تلك الفترة فوق كل أسلوب وأسمى من كل كلام، لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه، وما استطاعت على كثرة فصحائها في زمن نزوله أن تحتذي مثاله في أسلوبه وأداء معانيه، فأثّر في نفوس الشعراء والكتّاب أثرا بالغا، واتخذوه نموذجا لأدبهم زمنا طويلا. وهو نفس الأسلوب الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم، لتبليغ رسالته وخاطب قومه بالطريقة التي يفهمونها وتقع من نفوسهم الموقع الحسن، كما كتب إلى عماله، والى رؤساء القبائل، والى الأمراء والملوك، أوتي الرسول صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا وكلامه جزل رشيق لا تعمّل فيه ولا غموض وهو مرسل وموجز يقتصر على حاجته. فأصلح الرسول العربي صلى الله عليه وسلم لغة التخاطب والتكاتب كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش، وكذلك يقال في بلاغة الصحابة، ومن أخذوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يمتازون برجحان العقل، واستمر

الأدب على ذلك إلى أواخر القرن الأول[1]، حتى أصبح الأسلوب يتميز بالجمع بين الدين والأدب والعقل. احتفظت الكتابة والخطابة في عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التي ما حذقوا غيرها، وهي تدور على توفيه المعنى واللفظ حقهما مع البعد عن السجع، ومخرج سهل فكتابتهم كأحاديثهم ابنة السليقة وربيبة الغريزة خالية من كل ما هو متكلّف ومصنّع. "وقال علىّ بن أبي طالب ما رأيت بليغا قط إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة" وقيل لعمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها، قيل فهل كانت توجز، قال: نعم ليحفظ عنها"[2]

والشيخ محمّد عبده كان رجل دين وأدب يحترم عقله ويعتمد عليه إلى حد كبير، ففي أدب هذه الفترة رغّبته وحثّه على تحقيق رسالته، وقد أختار من أدب هذه الفترة "نهج البلاغة" نموذجا له وللشباب الناشئين، فشرحه وعلّق عليه. أحث الكتّاب الناشئين ودعاهم أن يجعلوا كتابه "نهج البلاغة" أهم محفوظهم وأفضل مأثورهم [3]

لقد أحث محمّد عبده الشباب على النفور لأدب السجع الخالي من المعاني الجليلة، وذكّر بأن هذا ليس كل شيء عند العرب، وإنما عندهم ما هو خير منه، وذلك حيث يقول في مقدمة " نهج البلاغة " ينتقد بمن يختار المنهج التقليدي المعقّد قائلا:

"وأرجو أن يكون فيما وضعت من وجيز البيان فائدة للشبان من أهل هذا الزمان، فقد رأيتهم قياما على طريق الطلب يتدافعون إلى نيل الأدب من لسان العرب يبتغون لأنفسهم سلائق عربية وملكات لغوية، وكل يطلب لسانا خاطبا، وقلما كاتبا، لكنهم يتوخون وسائل ما يطلبون في مطالعة المقامات، وكتب المراسلات مما كتبه المولدون، أو قلّدهم فيه المتأخرون، ولم يراعوا في تحرير إلا رقة الكلمات، وتوافق الجناسات، وانسجام الجمعات وما يشبه ذلك من المحسنات اللفظية التي وسموها بالفنون البديعية وإن كانت العبارة تخلو من المعاني الجليلة أو فائدة الأساليب

---

[1] محمّد عبده أديبا وناقدا، ص:١٥٥

[2] كرد على، محمد، أمراء البيان، ج: ٢، ط:٢، لجنة البيان العربي.

[3] زعماء الإصلاح، ص:٣٣٣

الرفيعة.[1]

وأكّد الشيخ محمد عبده على المصريون أنه يحب الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى، فرجعوا يدرسون كتبه القديمة وما كتبها المسلمون في العصر العباسي، وكان ذلك تحوّلا مهمّا من منهج الأزهر لأنها لم يكن فيها يدرّس سوى كتب العصور المتأخرة التي التوت أساليبها وتعقدت أشد ما يكون الالتواء والتعقيد. ولعب المطبعة دورا مهما في نشر وإشاعة هذا المنهج فنشرت الكتب الأدبية القديمة من مثل كليلة ودمنة لابن المقفع، فرأي المثقفون نماذج جديدة في التعبير تختلف اختلافا بيّنا عما كانوا غارقين فيها، فليس فيها التكلّف وليس فيها السجع والبديع، وإنما فيها الأسلوب المرسل الشفاف الذي لا يخفى شيئا من المعنى ولا يستر دلالة من الدلالات، فاقبلوه واتبعوه في الدين والأدب جميعا.[2]

مدرسة الشيخ محمد عبده الأدبي

ولم يكتف الشيخ محمّد عبده باستخدام هذا الأسلوب الجديد بنفسه لنفسه فحسب، بل أخذ على نشر هذا الأسلوب بين تلاميذه الذين كانوا يكتبون معه، كما أخذ يشجّع الصحف على احتذائه، ويطلب إلى أصحابها أن يختاروا من يحسن الكتابة بالأسلوب الجديد. وفي نفس الوقت انتقد بالكتّاب الذين يدعون إلى اتباع آداب الأمم أجنبية وأسلوبها دون انتقاد وغربلة، لأنه يرى أن أدب أمة لا يتأثر بآداب أمة أخرى بمجرد التقاء الأمتين، بل لا بدّ من وقت من الأوقات حتى تستطيع الأمة أن تأخذ عن غيرها وتهضم ما تأخذه وتمثله، ثم تخرجه أدبا جديدا له طوابعه وشخصيته. وفتح في الوقائع صفحات أدبية واجتماعية وسياسية، يكتب فيها هو وتلاميذه،[3] وكأنه يريد أن يضع بين الكتّاب النموذج الأدبي الجديد الذي ينبغي أن يتوفروا عليه، وقد أخذ يرقى

---

[1] محمّد عبده أديبا وناقدا، ص: ١٥٦

[2] الأدب العربي المعاصر في مصر، ص: ١٧٥

[3] The intellectual origins of Egypt Nationalism, P:20

بلغة المخاطبات الرسمية في دواوين الحكومة بما ينشر منها على وجه صحيح[1]، فتحريره الوقائع كان خطوة كبيرة في سبيل الرقي بلغة المخاطبات الحكومية وبلغة الصحافة[2]، فقد خرج بها من أسلوب السجع وأنواع الجناس والبديع إلى أسلوب مرسل حر، لا يضيق بالمعاني، ولا يضيق به القراء، و فلهذا كله أثره في النثر الفني في العصر الحديث فقد عاد إلى مثل ما كان عليه في أزهى عصوره[3]. ترك الشيخ محمّد عبده آثارا علمية وأدبية عن شتي الموضوعات الاجتماعية والإصلاحية والإسلامية والأدبية التي تلقى ضوء على الموضوعات التي عالجها الشيخ عبده أول الأمر وآخره، وبعضها كتب بقلمه وبعضها جمعها تلاميذه ونشروها في المجلات المختلفة بعد وفاته

و على هذا النحو كانت هذه الطبقة من الكتّاب تجددت مصر حياتها وعقلانيتها وتدفعها خطوات إلى الأمام، فأخذ الأدب يتحرر من الضعف والمبالغة والكذب، ومن العي واللكنة، ومن الصور الباهتة، والعواطف الزائفة، ومن كل ما يتنافى مع النظرة والطبع والمواهب الأدبية الصادقة، وهجر الناس السجع المتكلف والزخارف اللفظية، وكان لمحمّد عبده والبارودي ومصطفى كامل وسعد زغلول ولطفي السيّد أثر ضخم في تطور الأدب وتحريره من فيود القديم، وتطلعه إلى كل جديد[4]، و عادوا إلى التعبير عن النفس الإنسانية في صدق وإخلاص وقوة، وكان كثير من أفرادها قد أتقن اللّغة الأجنبية وأخذ نفسه بقراءة آثار المفكرين الغربيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأهم من يوضح هذا الاتجاه هم لطفي السيّد فتحي زغلول، رشيد رضا مصري،

---

[1] الخفاجي، محمّد عبد المنعم: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ط: ١، دار الجيل -بيروت، ١٩٩١ م. ص: ٣٠٥

[2] لون، عبد الحميد: إمام محمد عبده حيات وخدمات، تكبير پبلكيشنز، گاو كدل سرينگر،٢٠١٤، ص:١٨٧

[3] الخفاجي، محمّد عبد المنعم: دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه، ط: ١،، دار الجيل - بيروت، ١٩٩١ م. ص: ٣٠٤

[4] الخفاجي، محمّد عبد المنعم: دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه، ط: ١،، دار الجيل - بيروت، ١٩٩١ م. ص: ٣٠٤

طه حسين وعباس محمود العقاد، ومحمّد حسين هيكل ومن اليهم [1].

وعلى هذا النحو بمساهمته الأدبية والعلمية بدأ الأدب العربي يتطوّر وظهر أصناف الأدبية الكثيرة في الأدب العربي مثل الأدب القومي، والأدب الثوري، ونشأ فنّ القصة التاريخية، وتنوعت الضروب الأدبية، فبعد أن كانت السعة الغنائية غالية عليه، تنوع إلى أدب قصصي وتمثيلي وغنائي، وازدهرت الخطابة السياسية والقضائية والبرلمانية وذاع أدب المحاضرة والمناظرة وازدهر أدب الطبيعة فيما بعد.

خاتمة

والواقع أنّ المفكرين المصريين قبل الشيخ محمّد عبده لم يكن أمامهم مثل واضح أو هدف مرسوم، وهو الذي استطاع بقوة شخصية وكتاباته أن يكون مصدر وحي لرجال السياسة والاجتماع والدين والفلسفة في مصر، فنشأت بفضله خمس مدارس مهمة، الاجتماعية ويرأسها قاسم أمين، والسياسية يرأسها سعد زغلول والدينية يرأسها الأحمدي الظواهري، والفلسفية يرأسها مصطفى عبد الرزاق، والخامسة الأدبية يرأسها مصطفى لطفي المنفلوطي وتلاميذه فيما بعد، وجميعها تسير على نهجه وتستهدف إلى غاياته.

[1] محمد عبده رائد الفكر المصري، ص: ٢١٣